

عرض كتاب: حرب فرنسا في الجزائر 1954 - 1962

د. حملا حسين*

معهد العلوم الاجتماعية - قسم التاريخ - جامعة قسنطينة

ملخص

هذا عرض لكتاب صدر باللغة الألمانية عام 1974، يعالج فيه مؤلفه موضوع الثورة الجزائرية التي إنطلقت في الفاتح من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 1954، وأثرها بالنسبة لفرنسا وللجزائر والعالم الثالث.

يعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب التي عالجت موضوع الثورة الجزائرية، وذلك لأنه صدر عن طرف ثالث محايد وليس عن طرفي الصراع، لذا فإنه يتمتع بموضوعية جيدة و يعتمد مؤلفه على الكثير من المصادر الأصلية ومواد الأرشيف في فرنسا وغيرها. ومن المهم للمختصين في التاريخ الحديث والمعاصر في الجزائر وفي الوطن العربي الاطلاع على هذا الكتاب من وجهة نظر أحد المؤلفين الأجانب لفهم منهج تناول والطرح والتحليل لثورة في بلد من بلدان العالم الثالث، من وجهة نظر خارجة عن إطار المركزية الأوروبية. وهذا الكتاب أحد الكتب القلائل التي استطاعت الإفلات من هذه النظرة العنصرية الاستعمارية لتاريخنا العربي الحديث والمعاصر.

Résumé

Ce livre paru en Allemagne en 1974 traite de la révolution Algérienne qui débuta en Novembre 1954. Guerre de libération nationale, elle s'inscrit dans un contexte plus grand que les enjeux français.

S'appuyant sur des sources de première main, des archives françaises et autres, il étudie en profondeur les racines du conflit et insiste sur la dimension économique de cette guerre et ses conséquences nefastes sur les affaires françaises.

* استاذ محاضر، معهد العلوم الاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة قسنطينة - الجزائر.

L'importance strategique de l'Algerie dans l'édifice colonial est analysée avec beaucoup de rigueur pour comprendre les différentes attitudes à l'égard du conflit.

Allemand de nationalité, l'auteur jouit d'une grande objectivité et réussit à se libérer de l'europeo-centrisme dominant.

Oeuvre originale qui mérite d'être connue des spécialistes des questions contemporaines aussi bien en Algerie que dans le monde arabe.

صدر هذا الكتاب باللغة الألمانية سنة 1974 وعنوانه الكامل هو: الزنهانز، هارتموت: حرب فرنسا في الجزائر 1954 - 1962 : محاولة استقلال عن المتربول الرأسمالي. بخصوص انهيار الأمبراطوريات الاستعمارية (906 صفحات) ميونيخ: كارل هانزر، 1974.

ELSENHANS, HARTMUT: Frankreichs Algerienkrieg 1954-1962. Entkolonialisierungsversuch einer kapitalistischen metropole. Zum zusammenbruch der kolonial reiche, Munchen: Carl hanser verlag, 1974.

وترجمة عنوان الكتاب باللغة الفرنسية هي:

ELSENHANS, HARTMUT: la guerre Française en Algérie 1954-1962. Essai de décolonisation d'une métropole capitaliste sur l'écroulement des empires coloniaux. Munich: Carl Hanser Verlag, 1974.

يعتبر هذا الكتاب - حسب وجهة نظري - من أهم الكتب التي صدرت سواء باللغة الألمانية أم باللغة الفرنسية حول الفترة التاريخية التي يعالجها الكتاب. وتكمن أهميته هذه، أيضا، في كونه كتب من قبل طرف ثالث، وليس عن طرفي الصراع.

يتناول الباحث موضوع الثورة الجزائرية * التي اندلعت في الفاتح من نوفمبر عام 1954 ورد الفعل الفرنسي على هذه الثورة، من خلال تطوير استراتيجيات متعددة. كما يدرس الباحث أثر هذه الثورة على إعادة تشكيل النظام السياسي الفرنسي وعلى عملية تكوين الرأي العام الفرنسي، وأيضا تأثيرها على علاقات التعاون والصراع بين مختلف الفئات والمجموعات والأحزاب السياسية الفرنسية.

* يستعمل الباحث مصطلح " حرب الجزائر " في كتابه ، بيد أنني فضلت استخدام مصطلح الثورة الجزائرية.

ضم هذا الكتاب بين دفتيه مقدمة وستة فصول، بالإضافة الى قائمة بأسماء المصادر والمراجع وفهرس للمحتويات ، وقائمة ببعض الإحصائيات والمواد حول تاريخ الجزائر في تلك الفترة. قسم الباحث كتابه الى جزئين كبيرين ، وكل جزء منهما يحتوي على ثلاثة فصول، وكل فصل مقسم الى أقسام صغيرة. هذا ويقع الكتاب في 906 صفحات. وقد نشر الباحث جزءا من النتائج التي توصل اليها، في الكتاب الذي صدر في مدينة الجزائر العاصمة وبروكسل ، والذي ضم الأبحاث والمحاضرات التي أقيمت في الملتقى الدولي الذي نظمه المركز الوطني للدراسات التاريخية (24 - 28 نوفمبر 1984) وعنوان الكتاب هو: الثورة الجزائرية وصداها في العالم. (الجزائر: المركز الوطني للدراسات التاريخية 1985)، (ص ص: 292 - 312).

ففي المقدمة أوضح الباحث أن قلة من الناس، اعتقدت أنه في الفاتح من نوفمبر 1954، بدأت حرب تحرير افريقيا الثورية - الوطنية والأكثر قسوة ودموية من بين مثيلاتها في العالم. ويؤكد الباحث على المكانة التي كانت للجزائر بالنسبة لفرنسا، فهي الحجر الأساسي للامبراطورية الاستعمارية الفرنسية الثانية ورمز الرسالة الأميرالية لفرنسا(ص1). بعد ذلك يوضح ويحدد العناصر التي جعلت فرنسا تعتقد بأن الجزائر هي جزء لا يتجزأ من فرنسا. هذه العناصر كانت: وجود أقلية أوروبية - وجود المسلمين (الجزائريين) الفرانكفونيين - والدمج الثقافي للجزائر بفرنسا. لكل هذه الأسباب ، قاوم الفرنسيون بشراسة استقلال الجزائر وقاموا بزج مليون جندي فرنسي، وصرفوا مبالغ ضخمة جدا لتطوير الجزائر اقتصاديا وخلق قاعدة اجتماعية من الجزائريين للمساهمة في استمرار وبقاء السيادة الفرنسية في الجزائر(ص2). ومن أجل ابراز أهمية الثورة الجزائرية لافريقيا ، يذكر بأنه كانت هناك في افريقيا سنة 1954 خمس دول مستقلة، بينما وصل عدد هذه الدول عام 1962 الى سبع وعشرين دولة مستقلة، كما ساهمت الثورة الجزائرية مساهمة هامة جدا في التصدي للتغلغل الفرنسي والأوروبي الغربي في افريقيا، وبسبب توجهات الثورة الاجتماعية، شكلت نموذجا للتحرر ضد التخلف الاقتصادي والاجتماعي.

ويشير الباحث الى التحول الذي وقع في توازن القوة العالمي بعد عام 1945، ويذكر أن القوى الاستعمارية القديمة قد تراجعت أمام الولايات المتحدة الأمريكية ، وأصبحت تعتمد في رغبتها بالبقاء كقوة عالمية - بجانب الولايات المتحدة الاميريكية - بدرجة أقل على قوتها وسيطرتها الاقتصادية، بل على نفوذها وسيطرتها السياسية في مناطق ما وراء البحار.

وفي هذا السياق طرحت الثورة الجزائرية على فرنسا، اشكالية وضعها المستقبلي في النظام العالمي وشكلت " وبسرعة فائقة بؤرة الجدل الداخلي الفرنسي الحاد، هذا الجدل الذي كان يذهب الى أبعد من هذه الثورة " (ص5). ويضيف بأن " المرء يستطيع وبدون مبالغة ، أن يصنف الثورة الجزائرية بجانب المثال الكوبي والفيتامي، حتى ولو أنه من خلال تطور السياسة الداخلية

للجزائر بعد استقلالها السياسي، تم التراجع ولفترة قصيرة عن العنصر الاجتماعي الثوري في الثورة الجزائرية .

" في هذا المنظور التاريخي يقع جوهر هذا البحث " ، يقول المؤلف، أي في تحليل سلوك فرنسا تجاه الثورة الجزائرية ، وأوضح بأن محور اهتمامه سيكون منصبا على العناصر التالية:

- تحليل الوضع الدولي والظروف "...أداة أنداك.

تحليل الوضع في الجزائر كقاعدة لحركة تحرر وطني ولكبار مخططي الاستراتيجية الفرنسية.

- تحليل ارتباط وعلاقة المسألة الجزائرية مع مصالح الرأسمال الفرنسي، الذي كان يطمح لرفع وتحسين قدراته التنافسية في السوق العالمية .

- تحليل الاستراتيجيات الاستعمارية الجديدة، لتثبيت النظام وتأثير هذه الاستراتيجيات على الرغبة في زيادة النمو الاقتصادي. بمعنى آخر فإن هدف هذا الكتاب، هو

دراسة آليات السيطرة الداخلية والخارجية لبعض الاستراتيجيات الأمبريالية (ص6).

تطرق الباحث في القسم الأول من الكتاب - الذي قسمه الى عدة فصول وأجزاء فصول

- الى المحيط الفرنسي ووضع المصالح الفرنسية في الجزائر وخارجها. ففي الفصل

الأول من هذا القسم أبرز الباحث مواقف الدول المختلفة تجاه الثورة الجزائرية بشكل خاص وتجاه

النزاع بشكل عام. ففي تحليله لمواقف الدول العربية تجاه الثورة الجزائرية، أبرز الباحث دور

مصر الحاسم " كقاعدة لحركات التحرير وللوطنيين من افريقيا الشمالية "، خاصة بعد سيطرة

الضباط الأحرار على الحكم منذ منتصف عام 1952. ويذكر الباحث عدة أسباب لهذه الدور

الحاسم:

- رغبة مصر بتزعم الوطن العربي لأسباب جغرافية و ديمغرافية، وبعد 1954 لأسباب ايديولوجية.

- مصالح الاقتصاد المصري في حماية الأسواق العربية من التنافس الغربي.

- الاحترام الكبير الذي كانت تتمتع به مصر من قبل الوطنيين المغاربة.

ولتدعيم وجهة نظره ، يذكر الباحث بأن فرحات عباس لم يبلغ أية دولة عربية بصفة رسمية

بمضمون البيان، الذي صاغه سنة 1943، سوى مصر، ويؤكد بأن " مساهمة الدول العربية ،

خاصة مصر، في التحضير للثورة المسلحة، لا يمكن انكارها " (ص21).

ينتقل الباحث لعرض وتحليل مواقف الدول العربية الأخرى، فكانت المملكة العربية

السعودية مثلا، هي الدولة العربية الأولى، التي عرضت القضية الجزائرية على الأمم المتحدة.

(مع الأخذ بعين الاعتبار، أن مندوب السعودية آنذاك كان السيد أحمد الشقيري، أول رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية مؤلف كتاب: قصة الثورة الجزائرية. الصادر في بيروت عن دار العودة، مع عدم ذكر سنة النشر). وكان العراق هو الدولة العربية الوحيدة التي رفضت الاعتراف باتفاقيات إيفيان ولعب دورا بارزا في توريد الأسلحة من الاتحاد السوفيتي لصالح جبهة التحرير الوطني.

ويخلص الباحث الى نتيجة مؤداها، أن الدول العربية كان لها دورا حاسما في مساعدة الثورة الجزائرية على الصعيد السياسي والمادي والدبلوماسي والاعلامي (ص39). أما موقف الدول الآفرو - آسيوية وحركة عدم الانحياز ومواقفها في مؤتمر باندونغ 1955 وفي اجتماعات الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة، فانه كان مؤيدا للثورة الجزائرية، خاصة النواة الصلبة التي تكونت من الدول العربية والاسلامية مثل ايران وباكستان وأندونيسيا، والدول الآسيوية السائرة في فلك الهند، مثل نيبال وسيلان وبورما، تلك الدول التي وقفت بحزم مع الثورة الجزائرية (ص40). بيد أن دول أميركا اللاتينية وقفت موقفا مغائرا، ماعدا كوبا، فقد تمكنت فرنسا بأصوات هذه الدول من سحب اقتراح السعودية بوضع موضوع الثورة الجزائرية على جدول اجتماع الجمعية العامة عام 1955. ولكنها حاولت بعد عام 1958، أن تأخذ موقفا وسطا في هذا الصراع. (نلاحظ موقفا مشابها لهذه الدول تجاه القضية الفلسطينية، أيضا حيث تمكن الصهاينة والأميركان بأصوات هذه الدول، من تمرير قرار تقسيم فلسطين الى دولتين يوم 29 نوفمبر 1947).

ينتقل الباحث بعد ذلك الى تحليل مواقف حلفاء فرنسا، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية التي كانت حريصة على مصالحها النفطية في المشرق العربي وعلى ابعاد النفوذ السوفييتي عن جنوب أوروبا وعن إفريقيا، واتخذت موقفا متوازنا ومتحفظا من الطرفين حتى عام 1957. ولكنها غيرت هذا الموقف وشعرت بخطورة الثورة الجزائرية على الأنظمة الموالية لها في تونس والمغرب، وبدأت تعيد حساباتها من جديد. أما بالنسبة للدول الأوروبية الأخرى فانها أظهرت اهتماما أقل بالمسألة الجزائرية. فنجد أن الرأي العام الأوروبي والصحافة والنقابات والمنظمات والأحزاب التقدمية أظهرت تعاطفا واضحا مع الثورة الجزائرية وانتقدت سياسة فرنسا في الجزائر - (ص57). أما بالنسبة لحلف الناتو ومساعداته المالية والمادية والعسكرية، فلا يعطيها الباحث، أهمية قصوى، ولكنه يركز على المساعدة العسكرية الأمريكية لفرنسا وخاصة في مجال الطيران، فيذكر بأن تحليل وضع سلاح الجو الفرنسي لعام 1957، أظهر أن ثلاثة أرباع الطائرات المستخدمة في حرب الجزائر، كانت من صنع أمريكي (ص63).

وفي هذا الفصل أيضا، يسلط الباحث الضوء على مواقف البلدان الاشتراكية

والاتحاد السوفيتي (السابق)، التي وقفت منذ البداية مع طرح القضية الجزائرية عام 1955 على الأمم المتحدة، ولكنها اتخذت بعد ذلك موقفا حذرا خاصة بسبب علاقات الاتحاد السوفيتي الودية مع فرنسا ومحاولة كسبها لاقتناع الولايات المتحدة الأميركية لممارسة سياسة تعايش سلمي بين الدول. بيد أن الاتحاد السوفيتي لم يكن قادرا على الوقوف موقفا محايدا تجاه الثورة الجزائرية، خاصة وأن الصين وبلدان عدم الانحياز الأفرو - آسيوية قدمت دعما غير مشروط للثورة الجزائرية، وقد شكل الخلاف السوفيتي - الصيني فرصة ذهبية لحبهة التحرير الوطني من أجل استغلاله لصالحها وهذا ما وقع فعلا.

أما الفصل الثاني من هذا القسم ، فقد سلط الباحث الضوء فيه على التطور التاريخي للجزائر والوضع فيها عسمية اندلاع الثورة ، وركز بشكل خاص على التطور الجغرافي في قطاعات الانتاج والتطور الزراعي والصناعي وتركيب الوظائف بين السكان وتقويم الدخل بين المجموعتين: الجزائرية والفرنسية. وتطرق الى دراسة سوسيولوجية المؤسسات التعليمية والسياسية والادارية، وطرق تغلغل فرنسا في النظام الاجتماعي والثقافي للسكان المحليين. ولم يفته أيضا، أن يسلط الضوء على تاريخ الوطنية الجزائرية وتكوين جبهة التحرير الوطني وتكتيكها الداخلي من أجل كسب مساعدة الشعب الجزائري. كما يتعرض الى بعض الاجراءات التي اتخذتها الجبهة : مثل منع التدخين وشرب الكحول والتصفية الجسدية للخونة وعملاءفرنسا(ص 151) ، وتأسيس ادارة ثورية في كافة أنحاء القطر.

خصص الباحث الفصل الثالث للمصالح الفرنسية في الجزائر وفي الامبراطورية الاستعمارية الفرنسية وأهمية المسألة الجزائرية للاستراتيجية الفرنسية في افريقيا. ففي القسم الأول من هذا الفصل عرض الباحث المصالح الاقتصادية للمستوطنين الفرنسيين في الجزائر وأهمية التبادل السلعي الجزائري - الفرنسي، خاصة وأن الجزائر كانت سوقا استهلاكية ممتازة للاقتصاد الفرنسي، وساهمت مساهمة كبيرة بتزويد فرنسا بالمواد الأولية.

ويولي الباحث عناية خاصة للمصارف الفرنسية العاملة بالجزائر وكمية الرأسمال الذي استثمرته فيها، ومدى سيطرة هذه المصارف على الشركات العاملة بالجزائر خاصة شركات: فوسفات قسنطينة، مقطع الحديد، وجبل الونزة، وهذا يدل على أهمية الجزائر ليس فقط بالنسبة للمستوطنين الأوروبيين فحسب، وإنما، أيضا للرأسمال الفرنسي (ص196).

وفي القسم الثاني من هذا الفصل يسلط الباحث الضوء على المصالح الاقتصادية الفرنسية في الصحراء الجزائرية، خاصة بالنسبة لتركيب الصناعة النفطية الفرنسية فيبدأ باستعراض تاريخ البحث عن النفط في الصحراء من قبل الشركات الفرنسية والغير فرنسية ، ويطرح عدة تساؤلات حول عملية تمويل البحث عن النفط وعن دور القطاع العام والدولة ودور

القطاع الخاص في بناء انتاج البترول في الصحراء. وفي محاولة اجابته عن هذه التساؤلات يعرض الباحث مشاكل التسويق وانهيار الاستراتيجية الوطنية البترولية وتغيير وضعية المصالح الفرنسية. ويشير الباحث في هذا الجانب الى دور فرنسا في توسيع الرقعة الجغرافية للصحراء الجزائرية وبدون الأخذ بعين الاعتبار للحدود الاثنية أو الثقافية، وذلك لأسباب عسكرية من أجل السيطرة على كنوز الصحراء (ص 199)، من هذه الكنوز كان الغاز أيضا، ولكن فرنسا واجهت مشكلة كبيرة في عملية نقله وتسويقه، عكس البترول الذي كانت عملية نقله محلولة من الناحية التقنية (ص 260).

أما القسم الثالث والأخير من هذا الفصل، فقد تناول فيه الباحث بالدراسة والبحث موضوع المصالح الفرنسية في افريقيا السوداء وموقع المسألة الجزائرية في السياسة الاستعمارية الفرنسية، وذلك من خلال عرضه للعلاقات التجارية بين فرنسا والمنطقة الفرانكوفونية ومن خلال كون افريقيا السوداء موردا هاما، أيضا، للمواد الأولية للسوق الفرنسية. ويورد الباحث هنا معلومات هامة جدا عن تزاوج المصالح بين الرأسمال الفرنسي والرأسمال الألماني، من خلال محاولات تطوير صناعة أسلحة مشتركة في شمال افريقيا، خاصة بعد مبادرة المقيم الفرنسي في المغرب الأقصى، ايرك لابون (Eric Labone)، وتطورت بعد ذلك محاولات اشراك الرأسمال الأوروبي في الشركات الفرنسية العاملة في افريقيا وتوحدت السياسة الأوروبية والسياسة الاستعمارية، وانتقلت من السياسة الاستعمارية التقليدية الى السياسة الاستعمارية الجديدة " (ص 281 وما بعدها). بعد هذه المعلومات الهامة، يوضح الباحث مجرى تطور الأحداث السياسية في المناطق الافريقية السوداء والوظائف الممكنة للسيادة الفرنسية بالجزائر بالنسبة لسياسة الدفاع الفرنسية وكجزء من سياسة فرنسا فيما وراء البحار. كما ويوضح الباحث أيضا، الفرق الكبير بين السياسة الاستعمارية والاستيطانية الفرنسية في الجزائر والتي حرمت الشعب الجزائري من كل حقوقه السياسية والاقتصادية والثقافية وبين سياستها في افريقيا السوداء التي حاولت اعطاء النخب السياسية هناك بعض الحقوق لضمان بقاء سيطرتها الاستعمارية (ص 294 وما بعدها).

في تحليله لوظيفة الجزائر للسيادة الفرنسية في الجزائر وسياسة الدفاع الفرنسية فيما وراء البحار، يميز بين فترتين تاريخيتين، ففي الفترة قبل عام 1954 كان للجزائر عدة وظائف في سياسة الدفاع الفرنسية: أولا كانت الجزائر بوابة لأفريقيا السوداء، ومن خلال موقعها الجغرافي كان لها وظيفة حماية سواحل شمال افريقيا ثانيا، وبسبب ذلك ومن خلال قرار فرنسا أن تصبح قوة نووية عالمية، أصبح للجزائر وظيفة ثالثة وهي أن تصبح صحرائها قاعدة جغرافية لتطوير السلاح النووي الفرنسي واجراء التجارب هناك (ص 300). اضافة الى ذلك، يشير الباحث الى

الأهمية الاستثنائية للجزائر في الدفاع عن المصالح الفرنسية وعن حدود فرنسا الجنوبية نفسها، خاصة بعد عدم مقدرة فرنسا على مواجهة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية عن طريق الأسلحة البرية، مما جعلها تنسحب الى الجزائر لحماية سواحلها الجنوبية، ولهذا السبب قامت فرنسا باستثمارات مالية كبيرة لتمويل مشاريع بناء الموانئ والمطارات العسكرية والمدنية، لخدمة سياستها الدفاعية للدفاع عن حدودها هي، الى جانب الدفاع عن السواحل الافريقية. ويورد الباحث هنا أرقاما هامة عن هذه الاستثمارات المالية في الموانئ والمطارات، فبلغت ما مجموعه 11؟ من مجموع الاستثمارات الفرنسية في الجزائر. هذا وقد شارك حلف الناتو بهذه الاستثمارات عن طريق مساهمته في بناء البنية التحتية العسكرية الفرنسية في فرنسا نفسها وفي شمال الجزائر" (ص305).

عنون الكاتب القسم الثاني من كتابه ب: الردود الفرنسية على التحدي الجزائري وبدأ هذا القسم بالفصل الرابع الذي عالج فيه نماذج فهم وإدراك الحرب في الجزائر لدى الفرنسيين في الوطن الأم، وبين فيه، أيضا، كيف كانت هذه النماذج جزء من الردود الفرنسية على التحدي الجزائري.

قسم الباحث تحليل هذه الردود الى عدة خطوات:

- أ - نماذج فهم وإدراك الصراع بالجزائر، ذات الطابع الاجتماعي النفسي.
 - ب - الاستراتيجيات الفرنسية لمكافحة ومواجهة حركة التحرر الوطني في الجزائر، سياسة الاضطهاد الفرنسية والاعراضات لتطوير الوضع الاقتصادي وربط هذه الاعراضات بالاصلاح الاجتماعي.
 - ج - اجراءات ظرفية مؤقتة وخطط بعيدة المدى لتغيير الوضع السياسي بين الوطن الأم (فرنسا) والمستعمرة وبين مجموعتي السكان في الجزائر وتطبيقها ضد حركة التحرير.
- كانت أهم نماذج الإدراك، التي لعبت دورا كبيرا في عملية تكوين الرأي العام الفرنسي، كما يلي:
- الفهم التقليدي لمشكلة الإستعمار
 - نظريات التطور العامة، التي اعترفت بأحقية
 - نظرية الحرب بالمضادة للثورة
 - التغيرات في الجزائر .
 - مفاهيم التراجع.
 - مفاهيم التضامن الثورية.
- غير أن الباحث يورد، أيضا، مفاهيم مغايرة للمفاهيم سابقة الذكر، تلك المفاهيم التي دافع عنها أنصار كون الجزائر فرنسية، وأورد أيضا الحجج التي اعتمد عليها هؤلاء، من أجل تدعيم مواقفهم السياسية، وهي أن :
- الجزائر لم تكن دولة قبل الاحتلال

- تم احتلال الجزائر للقضاء على القرصنة
- الجزائر قبلت بالاحتلال
- الجزائر لم تكن متطورة
- المستوطنون أقاموا في مناطق خالية من البشر.
- أراضي المستوطنين هي فقط المزروعة جيدا.
- الاستيطان الزراعي يفيد الجزائر وفرنسا معا.
- التطور الديمغرافي للسُسين هو من صنع فرنسا
- ربع ميزانية الجزائر تصرف في التعليم
- المسلمين يجب أن يكونوا شاكرين لفرنسا.
- لولا فرنسا لكان الوضع في الجزائر أسوأ مما هو عليه الآن بكثير (ص 321).

في تحليله لتصور الفرنسيين التقليدي للاستعمار، يذكر الباحث بأن المستوطنين الفرنسيين في الجزائر ركزوا على ضرورة استعمال القوة مع الجزائريين، ذلك أن المسلمين لا يفهمون غير القوة. علاوة على ذلك برر المستوطنون " تخلف " الجزائريين بعوامل لا تاريخية، وليس كنتيجة مباشرة لممارسات الاستعمار الفرنسي بالجزائر، هذه التبريرات التي غلب عليها الطابع العنصري الملىء بالشعور الاستعلائي المتفوق تجاه الشعوب الأخرى بشكل عام، وتجاه الجزائريين بشكل خاص. وبانتقال الوطنيين الجزائريين الى الكفاح المسلح ظهر وضع جديد في الجزائر، وظهرت جبهة التحرير الوطني التي لجأت الى الكفاح المسلح في مقاومة الإستعمار الفرنسي في الجزائر، وحاولت الربط، أيضا، بين الوسائل العسكرية والإدارية والسياسية. و للرد على هذا التحدي حاولت فرنسا تطوير استراتيجيات مضادة على الصعد العسكرية والإدارية والسياسية . ومن أجل القيام بذلك، أصبحت فرنسا مجبرة في صراعها مع جبهة التحرير الوطني على ضرب وتدمير جهاز الأخيرة، وإيجاد وسائل استعمارية جديدة للحفاظ على بقاء الإستعمار الفرنسي في الجزائر، أو الوصول الى حل مع جبهة التحرير الوطني أو مع قسم من الوطنيين الجزائريين (ص 369). من هذا المنظور يقسم الباحث ميادين الصراع حسب الوسائل المستخدمة فيها الى ثلاثة ميادين، هي:

1 - ميدان الاجراءات العسكرية والبوليسية ضد جبهة التحرير الوطني، وذلك عن طريق بناء قوة عسكرية لضرب الثورة وعزلها عن الشعب الجزائري ، وإيجاد وخلق القوانين التي تشرع هذه الاجراءات .

2 - ميدان الاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية، هذه الاصلاحات التي حاولت تطوير القوى المنتجة في الجزائر واعادة توزيع الثروة وتغيير علاقات الملكية ، من أجل ارضاء

الجزائريين وتحسين ظروف معيشتهم . ويؤكد الباحث هنا ، أنه لا يجب النظر الى هذه الاجراءات بطريقة ايجابية - كما هو متعارف عليه- وانما ينظر اليها على أنها اجراءات كانت تهدف الى تثبيت الوجود الاستعماري الفرنسي في الجزائر على المدى البعيد، وأنها اتخذت أيضا، بسبب تغير المصالح الاقتصادية الفرنسية في الجزائر .

3 - ميدان الاصلاحات السياسية التي كانت تهدف الى زيادة تمثيل الجزائريين في المؤسسات الادارية الاستعمارية في الجزائر ، والمرتبطة مباشرة بالأجهزة الادارية في فرنسا نفسها. كما هدفت هذه الاصلاحات الى خلق منافس للنظام الاداري الذي خلقته جبهة التحرير الوطني، ومن خلال ذلك، هدفت الى كسب فئات من النخبة الجزائرية وجعلها تتخلى عن تضامنها مع جبهة التحرير .

ومن الممكن أيضا، أن تكون هذه الاصلاحات قد هدفت الى انهاء السيطرة الاستعمارية الفرنسية على مراحل متعددة والى تخفيف الصدمة عند قبول فرنسا انهاء وجودها الاستعماري في الجزائر . وفي تحليله لعملية المفاوضات السياسية التي أجرتها فرنسا مع جبهة التحرير الوطني، يؤكد الباحث أن هدف فرنسا لم يكن - بأي حال من الأحوال - التخلي عن سيطرتها على الجزائر، وانما كانت تهدف الى دمج جبهة التحرير الوطني أو أجزاء منها في نظام تسيطر عليه فرنسا. ويتضح هذا عندما نعرف بأن المفاوضات أجريت ليس مع الأجهزة المركزية لجبهة التحرير الوطني، وانما مع مجموعات وطنية خارج جبهة التحرير، وحتى في الوقت الذي أجرت فيه فرنسا مفاوضات مع جبهة التحرير الوطني ، فإنه لا يمكن استبعاد هذه الخطة الفرنسية ، لدفع الجزائريين لقبول نظام سياسي مسيطر عليه من قبل فرنسا.

مباشرة ينتقل الباحث، بعد ذلك، لتسليط الضوء على سياسة التتكيل التي اتبعتها فرنسا في الجزائر في الميدان العسكري ، ويحلل طبيعة الاجراءات البوليسية والأهداف التي أرادت فرنسا الوصول اليها من خلال هذه الاجراءات القمعية. في مقدمته للفصل (ص 373) يقرر الباحث أن الحرب في الجزائر، من وجهة نظر القانون الدولي، كانت حرب أهلية ، قامت بها مجموعة من السكان من الدرجة الثانية ضد القوة الاستعمارية الفرنسية المسيطرة، ولكن المؤلف شخصيا يعتبر هذه الحرب عملية تحرر وطني ضد السيطرة الفرنسية . وبما أن هذه الحرب لم تكن بين جيشين لدولتين مختلفتين، تعتبر وظائف الجيش فيها محددة وواضحة المعالم، فان وظيفة الجيش الفرنسي في تلك الحرب لم تكن محددة ضمن معايير قانونية واضحة . ولم تكن وظيفة الجيش الفرنسي محصورة فقط بالقضاء على القوة العسكرية لجيش التحرير الوطني، وأما أيضا، في عرقلة جبهة التحرير الوطني في عملية بناء جهازها الاداري والسياسي الخاص بها وفي هذه الحالة، تم استخدام القوة العسكرية واجراءات بوليسية قمعية ضد منظمات غير عسكرية أصلا.

وقامت السلطات الاستعمارية الفرنسية بسن قوانين جديدة تخدم أهداف هذه الإجراءات القمعية وتبرر استخدامها. وفي تحليله لتكتيك جيش التحرير الوطني، في مواجهة الفرنسيين، يذكر الباحث بأن هذا الجيش تمكن من تجنب مواقع القوة في الجيش الفرنسي، خاصة في ميدان القوة العددية وميزان التسليح، عن طريق الاختيار السريع والمفاجيء لزمان ومكان الهجوم وتركيز قوته بسرية تامة وبدون معرفة العدو. ولهذا السبب تركز اهتمام جيش التحرير الوطني على خوض "معركة السرية" (La Bataille du Secret)، هذه المعركة التي وفرت حماية كبيرة لأعضاء جيش التحرير الوطني. وبالمقابل تركز اهتمام الجيش الفرنسي العدو على خوض "معركة المخابرات" (La Bataille de Renseignements)، للحصول على معلومات عن جيش التحرير الوطني، وهذا ما جعلها تستخدم كل وسائل القمع والتكيل لإجبار الشعب على الكلام، وعدم التكتّم على تحركات جيش التحرير.

من جهة أخرى يحلل الباحث بنية الجهاز العسكري والقوة العددية للجيش الفرنسي في الجزائر، ويسلط الضوء على بعض المشاكل التكتيكية التي نجمت عن زج هذا الجيش في القتال، في بعض القطاعات العسكرية وتطور قوته العددية ودرجة تكوينه العسكري. ويذكر الباحث بعض المصاعب التي تعرض لها الجيش الفرنسي في عملية التسليح من حيث صعوبة نقل الأسلحة على الأرض أو عن طريق الجو، أو بسبب قدم بعض الأسلحة، ويعطي مثالا على ذلك، بأن عدد الطائرات الحربية الفرنسية قد وصل في شهر أوت (أغسطس) 1957 إلى ما مجموعه 370 طائرة عسكرية كان فيها 303 طائرات من انتاج امريكي قديم. والسبب في ذلك - حسب وجهة نظر المؤلف - الصعوبات المالية، التي حالت دون انتاج طائرات حربية جديدة (ص410). ومن الإجراءات الأخرى التي يتطرق لها الباحث، عزل الجزائر عن جاراتها تونس والمغرب، للحيلولة دون دخول قوات جيش التحرير الوطني إلى الجزائر، وبناء خط موريس على الحدود التونسية لتحقيق هذا الهدف.

ومن وسائل التعذيب والتكيل الأخرى التي يذكرها الباحث، هي:

- اعلان حالة الطوارئ كتبرير وتسويغ الإجراءات البوليسية.
- الاضطهاد بوسائل القانون
- بناء معسكرات الاعتقال
- بناء القرى المحمية والمحتشدات
- التعذيب وتأسيس الأجهزة المتخصصة لممارسته.
- مراقبة وسائل الاتصال، خاصة الصحافة الصادرة في الجزائر.
- منع تشكيل الأحزاب السياسية والأمر بحل الأحزاب القائمة.

- اجبار العمال المضربين عن العمل على كسر الاضراب والعمل لدى الشركات الفرنسية (ص 470).

يخصص الباحث الفقرة الخامسة من هذا الفصل للحرب النفسية وسماتها وتشكيل جهاز لقيادة الحرب النفسية ضد الشعب الجزائري، ويحلل المناهج والوسائل التي اتبعها هذا الجهاز. كما ويلقي الضوء على مشاركة المسنيز في القوات المسلحة الفرنسية ومشاركة فرنسيي الجزائر في القوات المحلية الفرنسية، ويعرض الباحث لمحاولات الجهاز الاستعماري الفرنسي القمعي الربط بين هذه الاجراءات وصول الى الابقاء على الاستعمار الاستعماري الفرنسي بالجزائر. في القسم الثاني من هذا الفصل، يركز الباحث دراسته على الاصلاح الاقتصادي والاجتماعي في الجزائر، الذي حاولت فرنسا من خلاله مقاومة جبهة التحرير الوطني. يبدأ الباحث بعرض السياسة الزراعية الفرنسية في الجزائر من حيث تحسين التربة والسقي وتغيير بنية الانتاج، ومشاكل الاقراض الزراعي ومشكلة التعاونيات والجمعيات ونزع الملكية والتقسيم الاستعماري للدخل. اضافة لذلك حظيت سياسة التصنيع الفرنسية باهتمام خاص من الباحث، خاصة مشاكل التصنيع والمشاريع المختلفة لتصنيع الجزائر وأدوات ومناهج التخطيط لهذا التصنيع، وقام الباحث أيضا، بتحليل طبيعة العلاقة بين الادارة الاستعمارية الفرنسية والمقاومين كأداة لسياسة التصنيع وتطوير بعض القطاعات ومحاولة القضاء على اختلال التوازن الجهوي، وتبعات المشاريع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في خطة قسنطينة وسياسة الدولة في مجال البنية التحتية في مجالات النقل والمواصلات وقطاع البناء ووظيفته في عملية التصنيع.

يولي الباحث في الفصل الثالث من القسم الثاني من الكتاب، أهمية خاصة لدراسة أوضاع العمال الجزائريين في فرنسا ودورهم في الاقتصاد الفرنسي، من جهة، وفي الحركة الوطنية الجزائرية من جهة أخرى. كما وينشر جداول احصائية مهمة حول التوزيع الجغرافي للجالية الجزائرية في فرنسا (ص 696) وحول أعداد الجزائريين المتعاطفين مع جبهة التحرير الوطني والمنضوين تحت لوائها في مختلف مناطق فرنسا. ويشير الباحث أيضا، الى الدعم المالي الذي قدمته الجالية الجزائرية في فرنسا لجبهة التحرير الوطني والى الدور والنشاط السياسي لها داخل فرنسا، وأهمية هذا النشاط في التأثير على الرأي العام الفرنسي .

وكان لهذه الجالية أهمية أخرى ، اذ بواسطة وجودها في فرنسا، تمكنت جبهة التحرير الوطني من تهديد فرنسا، بنقل المعركة الى داخل أرض العدو. بالمقابل لم تتمكن الحكومة الفرنسية من طرد العمال الجزائريين من فرنسا، لأن ذلك كان سيؤدي الى تدمير كل الخطط الاصلاحية الفرنسية في الجزائر كما جاءت في خطة قسنطينة (ص 696).

ولا يفوت الباحث هنا الاشارة الى المظاهرات الضخمة التي نظمها الجالية الجزائرية

بفرنسا، ودورها في تثبيت الصفة التمثيلية لجهة التحرير الوطني. ويخلص الباحث الى نتيجة مفادها أن وجود الجالية الجزائرية في فرنسا، أسهم في الاسراع في عملية الاستقطاب السياسي داخل المجتمع الفرنسي ، وساهم في زيادة عدد المتعاطفين مع الثورة الجزائرية ومع ضرورة وقف الحرب في الجزائر خاصة عندما لجأت السلطات الفرنسية لاستعمال القمع والتكيل ضد الوطنيين الجزائريين في فرنسا.

أما الفصل الرابع من القسم الثاني من الكتاب ، فقد خصصه الباحث لتحليل ودراسة الاصلاحات السياسية وادارية في الجزائر وللمعومات بين فرنسا والحكومة الجزائرية المؤقتة ، وفي تحليله لهذه الموضوعات، ركز الباحث على المحاور التالية:

- محاولات جزارة الجهاز الاداري الفرنسي في الجزائر وزيادة مساهمة الجزائريين في الصف القيادي الأول لهذا الجهاز سواء داخل الجزائر أو في فرنسا.
 - توسيع وظائف النظام الاداري الفرنسي في الجزائر من خلال زيادة المجالات الإستشارية في الادارة، وزيادة الترابط والتشابك بين الادارة والسكان المحليين.
 - اصلاح البلديات ونظام المقاطعات عن طريق تجنيد وتوظيف السكان المحليين.
 - خطط لتغيير الأوضاع في الجزائر عن طريق الادماج وإعطاء الأقلية الفرنسية في الجزائر الحكم الذاتي في حالة استقلال الجزائر.
 - عرض نماذج لبعض الحلول الإستعمارية في بعض الميادين، مثل فصل الصحراء وایجاد قواعد عسكرية فرنسية في الجزائر.
 - محاولة تأسيس منظمات سياسية فرنسية للتنافس مع جبهة التحرير الوطني، واقامة علاقات مع بعض المنظمات الجزائرية، التي لم تدخل في صفوف جبهة التحرير.
 - تاريخ المفاوضات السياسية بين جبهة التحرير وفرنسا أو مع المجموعات القريبة من جبهة التحرير ، وذلك منذ اندلاع الثورة التحريرية وحتى مفاوضات إيفيان .
 - وفي الأخير يحلل الباحث النتائج المباشرة للثورة الجزائرية على فرنسا من حيث:
 - الخسائر العددية للفرنسيين في الحرب.
 - تكاليف الحرب المالية .
 - التغييرات في الجيش الفرنسي.
 - أثر الحرب على التطور الاقتصادي العام لفرنسا.
 - وأهمية الحرب بالنسبة للاستقطاب الداخلي داخل المجتمع الفرنسي.
- أما المصادر والمراجع فقد أفرد لها الباحث ما مجموعه 27 صفحة من صفحات الكتاب وقسمها الى ستة أقسام هي:

- أ - الكتب السنوية والوثائق التي تصدر بانتظام.
 - ب - الوثائق الصادرة عن الجهات الرسمية الفرنسية.
 - ج - وثائق جبهة التحرير الوطني.
 - د - الكتب.
 - هـ - الدوريات والمجلات المتخصصة .
 - و - المجلات المخوذة من الدوريات المختلفة.
- اعتمد الباحث على مصادر ووثائق مهمة جدا وذات صفة شمولية لكل جوانب البحث. فبالنسبة للكتب السنوية كان أهمها:

L'année politique 1945-1962. PUF, Paris 1955-1963.

Annuaire statistique de l'Algerie. Alger 1953-1961.

Annuaire statistique de la France. Paris INSEE.

كما اعتمد الباحث، أيضا، على وثائق وتقارير رسمية يفوق عددها سبعين وثيقة صادرة عن أكثر من ثلاثين جهة رسمية فرنسية مثل : بنك فرنسا، بنك الجزائر، مكتب البحث البترولي والجيولوجي، الوفد العام الحكومي في الجزائر، ووثائق وزارات الجزائر والتجارة والمالية ووزارة الدولة المسؤولة عن الشؤون الجزائرية والوزارة القائمة في الجزائر، ووثائق مكتب الإحصاءات العامة للجزائر. واعتمد الباحث أيضا، على وثائق جبهة التحرير الوطني، مثل وثائق الهلال الأحمر الجزائري والحكومة الجزائرية المؤقتة ووزارة الاعلام ووثائق مهمة أخرى.

أما بالنسبة للكتب فإنها كانت مهمة جدا، وكتبت باللغات الثلاثة: الألمانية - الإنجليزية - الفرنسية، وبلغ مجموع الكتب التي اعتمد عليها الباحث ما يزيد على ستمائة كتاب (602) . واعتمد الباحث أيضا، على عدد كبير من المقالات والأبحاث المنشورة باللغات المذكورة قبل قليل، والتي بلغ عددها 321 مقالة منشورة في مجلات ودوريات فرنسية مهمة . وبسبب أهمية الجداول الإحصائية والمعلومات التي أطلع عليها الباحث وتوفرت لديه قام بنشرها في ألمانيا على شكل كتاب بلغ مجموع صفحاته 150 صفحة وسعره عشرة ماركات المانية (ص 906).

وأخيرا يمكن القول، أن الباحث - حسب وجهة نظري - قام بعرض هدفه من تأليف كتابه بطريقة جيدة ومقبولة، وأحسن تقديم مادته، التي تدعو الى الإثارة والاهتمام، هذا على الرغم من أنه استعمل أسلوبا صعبا من الناحية اللغوية، خاصة الجمل الطويلة التي بلغ طول بعضها ما يزيد على أربعة عشر سطرا ؟ . ويتمتع الكتاب بالدقة وهو جدير بالثقة إذ أن المؤلف مختص بالموضوع واطلع على مصادر ومراجع شاملة وهامة، وأشرف في نفس السنة (1974) على اصدار كتاب مهم آخر، تحت عنوان: البترول لأوروبا، بلغ مجموع صفحاته 342 صفحة. وكما

هو واضح من قائمة المصادر والمراجع، فإن المؤلف يتقن ثلاثة لغات وهي:
الألمانية - الإنجليزية - الفرنسية.

وقد استخدم الباحث مصادره بعناية وحسن تمييز، ولم يظهر أي نوع من الإنحياز، واستخدم الهوامش والحواشي بكثرة وبطريقة أكاديمية دقيقة ولكل هذه الملاحظات فإن هذا الكتاب - كما اعتقد - هام جدا ونافع وأوصي بترجمته حتى تعم فائدته، ويستطيع الجمهور والمؤرخون والخبراء وصانعو السياسة الاطلاع عليه والإستفادة منه.